القسم الاول

عهد وزارة الاوقاف – الادارة السويسرية
(من أكتوبر سنة ١٩٢٦ إلى مايو سنة ١٩٣٢)

١ – قصة مبنى المصحة وتاريخه(١)

كان البارون يوهان فون كنوب (Yahann von Knoop) ، نبيلا روسيا موسراً من أصحاب أكبر مصانع النسيج فى بريمن (بألمانيا) ، وبتروغراد (بروسيا) وليفربول (بانجلترا) . وكانت له ابنة مرضت وتوفيت بالسل بانجلترا . وأصيب ابنه أيضاً بالسل ، فقصد به مصر للاستشفاء فى أواخر القرن الماضى .

البارون يوهان فون كنوب

وبعد أن زار الأقصر استقر بحلوان ؛ وشاء الله أن يشفى ابنه من مرضه الخطير بفضل جو حلوان الشتوى البديع ، حوالى سنة ١٩٠١ ميلادية .

---

(١) نقلا عن المرحوم الدكتور ولهلم برمنجر - Dr. W. Preminger - آخر طبيب تشيكوسلوفاكى تولى الاشراف الطبى على « فندق الحياة » .

وشعر البارون كنوب الشيخ ، أن جو حلوان قد أفاده صحياً فائدة ملموسة فأصبح بالغ الحماسة والتشيع لحلوان ، واشترى فى سنة ١٩٠٢ منزلا يقع على ربوة عالية فى شرق حلوان كان يملكه « محسن بك » ، أحد وجهاء حلوان ، واستقر به ليستمتع بجو حلوان أطول مدة ممكنة .

وخطر له فى السنة التالية أن يؤلف شركة مساهمة ، بدأت برأس مال قدره ثمانون ألفاً من الجنيهات ، زيد بعد ذلك إلى مائة وخمسين ألفاً .

واشترت الشركة مساحة كبيرة من أملاك الحكومة ، وأقامت عليها فندقاً مصحياً (Hotel-sanatorium) ـ وهو التعبير الوارد فى عقد تأسيس الشركة الرسمى. وقام بوضع تصميم الأبنية والاشراف على إقامتها مهندسون مشهورون من ڤينا وسويسرا بين سنة ١٩٠٣ و ١٩٠٦ . وألحق بالفندق المصحى معهد طبى للعلاج كان مديره الأول طبيبا ألمانيا شهيرا اسمه الدكتور هانز فون كامب (Dr. Hans Von Campe)

واختارت الشركة «فندق الحياة» اسماً لهذه المؤسسة، دون إضافة ما يُشعر بأنه مصحة ، مراعاة لشعور الجمهور .

وازدهر «فندق الحياة» واستفاضت شهرته ، وقصده السراة وأولياء العهود والملوك من جميع أقطار العالم ، لفخامته واستكمال أسباب الراحة والعلاج فيه .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى ، استولت عليه السلطات البريطانية على أنه من أملاك الأعداء ، واستخدمته لإيواء الأسرى الألمان والنمساويين أولا ، ثم لعائلاتهم ، ثم للجنود البريطانيين أخيراً .

ولما انتهت الحرب كان المبنى قد أصبح خرباً مهجوراً .

ومات البارون يوهان كنوب فى سنة ١٩١٥ ، وجاء أحد الورثة إلى مصر بعد انتهاء الحرب يعرض بيع المبنى وتصفية التركة . . ونمى الخبر إلى حضرة

صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول ، فأوعز إلى وزارة الأوقاف بشرائه وجعله مصحة لمرضى السل .

فاشترته وزارة الأوقاف فى مارس سنة ١٩٢٤ بمبلغ خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات ، وبدىء فى تنفيذ رغبة المليك ، وطُلب إلى المرحوم الدكتور ظيفل باشا كتابة تقرير عن موضوع استخدام المبنى لعلاج مرضى السل ، فكتب سعادته التقرير الذى سيجىء ذكره فيما بعد .

واختيار الموقع ، وتنسيق الأبنية وهندستها ، وطرازها ، يدل على علم وثيق وذوق ممتاز وخبرة واسعة بما يجب أن يتوافر فى مصحة من الطراز الفريد أنشئت للموسرين .

وأستطيع أن أقرر — بعد خبرة كافية — أن موقع المصحة فريد لا نظير له من وجوه كثيرة ، قلّ أن تتوافر فى مكان سواه فى جميع أنحاء القطر المصرى .

٢ — فكرة تخصيص المبنى لمرضى السل

ليس فى وسعى — حتى لو أردت — أن أجامل أحداً فى سرد الوقائع وأنا أؤرخ بأمانة تامة خالية من أى غرض ، ولهذا فإنى أؤكد للقارىء الكريم أن فكرة تخصيص المبنى لعلاج مرض السل فكرة شخصية للمغفور له صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول — رحمه الله — وأن جلالته هو أول من فكر فيها وأمر بتنفيذها بل أصر على ذلك ، رغم معارضة أطباء كبار ، لهم مكانتهم ونفوذهم ، وأساتذة لهم صيتهم الذائع .

ودليلى على ذلك مستمد من الوقائع التالية :

(أولا) فى سنة ١٩٢٦ ، بعد عودتى من الخارج ، قصدت كبيراً مسئولا

فى مصلحة الصحة ورجوته أن يتيح لى فرصة ممارسة اختصاصى ، ولو باعطائى سريرا واحداً فى «قصر العينى» . فكان جوابه : يا ابنى ، أنت تجرى وراء خيال فليس فى مصر سل ، وأنا خلال خبرة ثلاثين عاماً لم أر غير عدد محدود جداً من المسلولين يعد على أصابع اليد ، ابحث لك عن عمل أجدى وأنفع . . . »

فاذا كان هذا ما يدور فى خلد رجل مسئول ، له مكانته واعتباره ونفوذه ، فنى وسعى أن أقرر مطمئناً أن مدى انتشار السل فى مصر يومئذ كان مجهولا لا يُعنى أحد ببحثه أو الاهتمام بمحاولة كفاحه .

(ثانياً) حين اختارتنى وزارة الأوقاف لمنصب وكيل مصحة فؤاد ، ذهبت للقاء هذا الكبير المسئول فى مصلحة الصحة فقال : يظهر أنك لم تستمع لنصيحتى ، إن المصحة لا مستقبل لها ، فلن تجدوا مرضى لملء أسرتها ، وحتى لو وجدتم المرضى ، فجو حلوان فى الصيف سيسبب لهم نزيفاً رئوياً ، وستضطرون لإغلاقها » فأجبته : «سنجرب ونرى ما يحدث . . . »

(ثالثاً) فى أوائل أيام عملى بالمصحة ، قابلت أحد أساتذة قصر العينى الأجلاء ، وهو أستاذى ، وله فى نفسى إجلال لاحد له ، فقال لى «أنا غير موافق على اختيار حلوان لعلاج مرضى السل مطلقاً ، فهى فى الصيف جهنم ، والمرضى الذين سيقضون الصيف فى حلوان سيموتون حتماً » . .

ومن حسن الحظ أن هذه النبوءة لم تتحقق ، ولكنها فى حينها ، ومن أستاذ واسع الخبرة ، جعلتنى أرتقب الصيف الوشيك بوجوم ورهبة وقلق .

(رابعاً) فى حفلة الافتتاح الرسمى للمصحة ، أثناء دخول المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول غرفة الأشعة بالمصحة ، قال له الدكتور برناند مدير المصحة السويسرى : إن التجارب التى جربها ، والإصابات التى عالجها ، دلت على أن إقليم حلوان من أكثر أقاليم العالم ملاءمة لمعالجة التدرن الرئوى ، وإن المصحة

الحالية قائمة فى خير مكان يمكن اختياره لهذا الغرض. وهنا ابتسم جلالته وقال بالفرنسية :

« وقل إنى لما طلبت شراء هذه الدار لتحويلها إلى مصحة، عارضونى معارضة شديدة ، ولكنى صممت على رأيى وألححت فى طلبى . . . وهكذا يجب على الانسان أن يتذرع بصدق العزيمة فى مثل هذه الظروف » (١)

وهذا التصريح الملكى الكريم ، قاطع حاسم واضح الدلالة بعيد المغزى .

(خامساً) فى جريدة الأهرام الغراء (العدد ١٥٥٦١ بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٩٢٨ جاء ما يلى :

« وأخيراً حضر أحد أصحاب فندق الحياة فى سنة ١٩٢٤ ورغب فى بيعه لاستحالة الفائدة منه ، فلما بلغ ذلك مسامع مولانا جلالة الملك المفدى أمر فى الحال بشرائه ، وكلف المرحوم الدكتور ظيفل باشا أن يكتب تقريرا طبياً يفصل فيه الفوائد الجمة التى تعود على الأمة المصرية الكريمة من إعداده مصحة كما كان ، ولكن للفقراء الذين يقعد بهم سوء الطالع عن تحمل نفقات العلاج .

وصادفت هذه الفكرة هوى فى نفس المرحوم ظيفل باشا فكتب تقريره المشهور ورفعه إلى وزارة الأوقاف فى سنة ١٩٢٤ والذى نقتطف منه ما يلى :

« أمر جلالته بمشترى هذا المستوصف الجميل والشروع فى تصليحه لعمله مستوصفاً لمعالجة الأمراض الصدرية والأمراض الأخرى التى تشفى وتتحسن بالحالة الجوية الخاصة بحلوان » (انتهى ما نقلناه عن جريدة الأهرام الغراء)

ويتبين جلياً من ديباجة هذا التقرير الطريف وسياقه ، أنه دفاع عن التوجيه الملكى الكريم وتبرير له ، كتبه طبيب ذائع الصيت ، ليردّ به على آخرين أبدوا آراء معارضة ...

---

(١) نقلا عن الأستاذ كريم ثابت بك فى مقال بجريدة المقطم العدد ١١٨٥٥ بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٩٢٨ .

ونحن إذ نبرز هذه الحقيقة التاريخية ونسجلها ونعلنها بعد كل هذه السنوات إنما نرد الفضل إلى صاحبه الأصيل ، ونحنى الرءوس إجلالا لعبقرية الملبك الراحل ، وأصالة رأيه وبعد نظره وسعة أفق تفكيره ، حتى فى هذه المسألة الطبية البحتة .

٣ ـ اختيار المدير السويسرى الأول (Dr. René Burnand)

من الحقائق المسلم بها المقطوع بصحتها ، أن المعاهد العلمية ـ وبالأخص العلاجية منها ـ ليست قيمتها الحقة فى ضخامة بنائها وفاخر أثاثها وبهرج طلائها ، بل فى اقتدار القائم بالإشراف عليها ، فناً وخُلقاً وإنسانية .

والمصحات على وجه التحديد ، لا تحتاج فى إدارتها إلى العلم وحده ، إذ يتعين أن يجمع مدير المصحة الناجح بين العلم ، والتجربة الطويلة ، والخلق السلس الرضىّ ، والانسانية الرحيمة الواسعة الأفق ، التى تستوحى فى علاج مرضى السل أنبل المشاعر ، وأسمى ما فى النفس البشرية من دوافع التضحية وإنكار الذات .

والمصحة المصرية الناشئة — ولم تكن بعد غير بناء متهدم ، وفكرة إنسانية نبيلة ، خطرت ببال عاهل عبقرى مصلح — كانت فى مسيس الحاجة إلى عالم مجرب ، وإنسان موهوب ماضى العزيمة ، يستطيع أن يحيل هذا المبنى الخرب إلى :

دار تُفيء إلى القلوب سَكينةً وتُفيض عافيةً على الأجساد

وإنى إذ أخط هذه السطور بعد عشرين عاماً كاملة ـ وهى فترة زمنية مديدة تكفى لرواية الحوادث وتقرير الوقائع فى هدوء واتزان ـ أستطيع أن أؤكد أن اختيار المدير السويسرى الأول ـ الدكتور رينيه برناند ـ جمع كل عناصر

التوفيق الإلهى لانجاح مشروع المصحة العتيدة .

فى ترجمة حياته الموجزة ، التى يراها القارىء فى مكان آخر ، يبدو جلياً أنه عالم من طراز نادر ، وكاتب ضليع وأديب ممتاز ، من حظ مصر أن ظفرت به لأداء المهمة الدقيقة التى ندب لها . والذين عرفوا الدكتور برناند ، وكان من حسن حظهم أن عملوا معه ، يعرفون سعة أفقه ، وشخصيته الجذابة المحببة إلى القلوب ، وحبه الصادق لمصر والمصريين ، وإخلاصه القلبى فى تكوين جيل من الأطباء المصريين الذين تابعوا العمل الجليل الذى بدأه ، والذى يقوم إلى اليوم شاهداً على علم الرجل وفضله وتوفيقه .

وفيما يلى بيان طريف عن ظروف اختيار جنابه لادارة المصحة عثرت عليه مكتوباً بقلمه ولغته السلسة وفيه يقول جنابه :

« فى خريف سنة ١٩٢٥ كانت القنصلية المصرية بسويسرا تبحث عن إخصائى لتنظيم مصحة مصرية تزمع وزارة الاوقاف إنشاءها بحلوان .

وكنت أزمع ترك ليزان (Leysin) للاستقرار بلوزان (Lausanne) لادخال أولادى بمدارسها . وخاطبنى القدرى بك ، القنصل المصرى فى هذا الشأن ، فاستهوتنى الفكرة لطرافتها .

وبعد مفاوضات كثيرة تلقيت من وزارة الأوقاف المصرية برقية فى فبراير سنة ١٩٢٦ للحضور إلى مصر ، وقضاء بضعة أسابيع لدراسة مشروع المصحة ووسائل تنفيذه .

وفى ٧ ابريل سنة ١٩٢٦ ، وصلت إلى القاهرة ، وقابلت حضرة صاحب السعادة إبراهيم فهمى باشا وكيل الوزارة ، وحضرة صاحب العزة الدكتور سالم بك هنداوى مدير القسم الطبى الذى استصحبنى فى اليوم التالى إلى حلوان فى سيارة ، وهناك وجدنا مصحة المستقبل عبارة عن مكان خرب مهدم تماما ، وكان القيظ

شديداً ، والطقس استوائى مرهق ، وظاهر الأحوال يدعو الى اليأس والقنوط .

وقادنا (محمد عوض ـ الخفير) ، والحاج (أحمد الدباح الميكانيكى) وسط الخرائب المهجورة ، وقدما لنا ماء وموزاً حين أدركنا الكلال والتعب .

وقضيت بعد ذلك أربعة أسابيع ، أضع تفاصيل تنفيذ مشروع المصحة . فى الصباح أعمل مع الدكتور هنداوى بك والدكتور نظيم بك بالوزارة فى وضع قوائم المهمات اللازمة للمصحة ، ثم أذهب إلى حلوان مع الدكتور هنداوى بك لتوزيع الأمكنة وتحديد المواقع على طبيعة البناء .

ولقد فكرنا خلال هذه الأسابيع الأربعة فى كل شىء ، فى المغاسل وجهاز تعقيم المباصق وأوانى المطبخ والأثاث والأغطية والآلات الجراحية . الخ . ورحنا نذرع القاهرة لعمل المناقصات اللازمة من محلات بلاتشى إلى شيكوريل إلى البون مارشيه الى محل الدجم (الهلال الاحمر) الخ

وقد حظيت فى خلال هذه الفترة بالتشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد ، مبتدع المشروع ، وصاحب فكرته ، والمشرف الأعلى على إنجازه .

وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٦ ، عدت إلى سويسرا بعد أن أمضيت عقداً لمدة ثلاث سنوات مع وزير الأوقاف حضرة صاحب المعالى محمد توفيق رفعت باشا بحضور القدرى بك قنصل مصر بسويسرا ، وكان فى مصر بالاجازة فى ذلك الحين ، على أن أبدأ العمل فى سبتمبر التالى .

وخشية قيظ حلوان على صحة عائلتى ، حجزت بالمعادى مسكناً مناسباً لأقطن به عند عودتى فى الخريف » .

٤ — الصعاب الأولى . المكافحون الأبطال

نترك لجناب الدكتور برناند إتمام الحديث الذى بدأه فيما أسلفنا ، ففيه وصف طريف شائق يستحق التسجيل للفترة الأولى من حياة المصحة الناشئة :

يقول الدكتور برناند :

« فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ عدتُ إلى مصر مع عائلتى ، وكان ابنى الأكبر قد عُملت له عملية استئصال الزائدة الدودية فى الصيف وكان جرحه لم يلتئم بعد »

وجاءت معى الآنسة أندريه فلور «M lle A . Fluhr» وهى ممرضة فرنسية ، خريجة معهد السورس بسويسرا ، والدكتور موريس جلبير «D r M . Gilbert» على أن يعمل الدكتور طبيباً للأشعة ، ولكنه سرعان ما بذل جهده كله فى معاونتى.

وبدأنا نواجه صعابا ميئسة منذ اللحظة الأولى ، فلم تكن وزارة الأوقاف قد قطعت شوطا بعيداً فى ترميم بناء المصحة المهدم خلال الثلاثة الشهور السالفة. وكان علىّ أن أجد مكانا لمبيت طبيب الأشعة والممرضة الفرنسية ، إذ كان البناء خاليا من أى سرير أو غطاء . . .

وأغاثنا الدكتور نظيم بك ، فاشترى سريرين وحشيتين (مرتبتين) وقطع أثاث صنعت على عجل ، وابورات طبخ عادية (پريموس) ، وبضع (حلل) وتركها لنا على مدخل المصحة ، ومن الأسف أنه لم يكن معنا آلة تصوير لتسجل هذا المنظر الفريد . . .

وبدأ الطباخ يجهز الطعام على وابورات «البريموس» ، وتناولنا قهوتنا جلوسا فى الحديقة حول مائدة مكونة من صناديق الأسمنت الفارغة . . .

وكانت وزارة الأوقاف قد عينت بعض موظفى المصحة ، أولهم وأقدمهم عهدا «يوسف افندى سامح المهندس» ورئيسة ممرضات سويسرية «الآنسة جوليا

فالتر» «Mlle Julia Walter» التى استقالت بعد قليل لتحل محلها الآنسة فلور (Mlle Fluhr) ، وطبيب امتياز «الدكتور عثمان أفندى شاهين» وقد استقال بعد مدة وجيزة ، «ومحمد أفندى عثمان» المعاون وأمين المخزن، وهو رجل مجامل مخلص لعمله إلى درجة التفانى فيه حتى الإعياء والتهالك على نفسه من فرط الإجهاد .

وقد وعدنا أن نقبل أول مريض فى ٩ اكتوبر سنة ١٩٢٦ بمناسبة عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ، برغم أنه كان ينقصنا كل شىء، وكان لابد لنا من البر بهذا الوعد .

وجاءنا مريض اسمه « رامول حزان » من الاسكندرية فقبلناه فى هذا التاريخ وافتتحنا به المصحة ، وبعد أيام قليلة جاءتنا مريضة اسمها «نجيه زغلول» فقبلناها وافتتحنا بها قسم الحريم المجانى. ثم جاءنا موظف مريض من وزارة الأوقاف.

وكنا مضطرين لتحديد عدد مرضى المصحة لنترك لوزارة الأوقاف فرصة شراء ما ينقص المصحة من أثاث ومعدات ، ولكن المرضى كانوا يتوافدون علينا باستمرار ، وكان أهلهم يحملونهم إلينا ويتركونهم فى طرقات المصحة لتقدم حالتهم الصدرية.

ومرّت بنا أوقات عصيبة ميئسة ، فكان الخدم قليلين وعديمى الخبرة ، ولم يكن بالمصحة ماء أو كهرباء أوجهاز أشعة أو حتى مطبخ . . .

وكنا نستقى بنقل الماء بالصفائح من منزل قلينى باشا المجاور للمصحة ، وكانت مجارى المصحة مهدمة ، وخزانات المياه فيها خروق يحاول المهندس بين آن وآخر رأب صدوعها ليمنع تسرب المياه منها .

واشترت وزارة الأوقاف سيارة (فورد) على عجل ، كانت تحملنا — المدموازيل فلور والدكتور جلبير ومحمد أفندى عثمان وأنا — إلى القاهرة

لنملأها ونعود بها فى المساء محملة بالحاجيات المنزلية المتعددة من الكوبة إلى مسحة الأطباق ...

وكانت عربات محلات بلاتشى وشيكوريل حين تصل إلى المصحة تحمل الأثاث وغيره من المشتريات تبعث فى نفوسنا كثيرا من الرضى والغبطة .

وفى يناير سنة ١٩٢٧ وجدت من الضرورى الانتقال مع عائلتى من المعادى إلى المصحة لاستحالة إدارة المصحة عن بُعد .

وقد كان من حسن حظنا أن شفى بعض مرضانا شفاء سريعاً ، وترامى خبر هذه الحالات إلى الجمهور فزاد إقبال المرضى على المصحة .

ومن الانصاف للواقع أن لا يلومنا أحد على أننا بدأنا قبول المرضى قبل إعداد المصحة تماما، فان شعور الرفق بالمرضى المساكين هو الذى دفعنا الى ذلك وحفزنا الى مضاعفة جهودنا ، وقد بذلت لنا وزارة الأوقاف كل معونة ممكنة .

وعلى الرغم من بذلنا كل هذه الجهود ، هاجمت بعض الجرائد مشروع المصحة وانتقدته انتقاداً مراً ، ولم نكن نرى أى مسوغ معقول لهذا التجريح الظالم ، ونعتقد أنه كانت هناك دوافع سياسية من وراء هذا الهجوم .

وفى ابريل سنة ١٩٢٧ عينت وزارة الأوقاف الدكتور عبد الرءوف حسن وكيلا للمصحة ، فجاءنا يضيف جهده إلى جهودنا ، ويحمل معنا نصيبه من الأعباء .

وفى مايو سنة ١٩٢٧ التحق الدكتور اسماعيل شكرى طبيب امتياز بالمصحة، بعد أن انتهى من دراسة الطب بجامعة ستراسبورج بفرنسا .

وفى يونية سنة ١٩٢٧ كان الصيف قد أقبل بقيظه ، وكان من حق أن أستريح بعد كل مابذلت من جهود مضنية ، فسافرت إلى سويسرا وتركت المصحة الحديثة العهد للدكتور عبد الرءوف وكيلى » . (انتهى حديث الدكتور برناند)

ولا تعقيب لى على هذه الصورة التى رسمها الدكتور برناند بلغته السلسة وتصويره الصادق ، فهى واضحة الدلالة مليئة بالعبر .

وقد بدأتْ صلتى بالمصحة بصفة غير رسمية فى ٥ يناير سنة ١٩٢٧ (١) حين رشحتنى وزارة الأوقاف لمنصب وكيل المصحة ، حتى ابريل حين تسلمتُ العمل رسمياً ، وقد شهدتُ عن قرب كفاح الأبطال الذى صوره الدكتور برناند ، ثم انخرطت فى الصفوف ، وخضت غمار الحوادث ، وجرفنى تيارها وصدمتنى أمواجها وذقت طعم الكفاح المرير ، وعشت لأروى للناس بقية القصة بعد كل هذه السنين .

٥ — الصيف الأول العصيب

ولا مبالغة مطلقاً فى استخدام هذا التعبير ، إذ يُعجزنى أن أجد عبارة أخرى تؤدى المعنى الذى أرمى إلى تصويره وتوكيده .

لقد نجح الكبار — الدكتور برناند ، وولاة الأمر فى وزارة الأوقاف — بجهدهم الرائع البديع فى أن يخلقوا نواة المصحة ، على الوجه الذى أسلفنا ذكره .

ولكن كان مذخوراً لى فى طوايا الغيب — أنا الطبيب الناشىء المغمور — أن أستهدف فى صيف المصحة الأول لصعاب كثيرة أخرى من نوع جديد تتزاحم ذكرياتها فى خاطرى الآن ، وسأحاول تصوير بعضها فى إيجاز على سبيل العبرة والذكرى .

كان الجناح الشرقى — وهو جزء المصحة الأكبر — لايزال مهجوراً خرباً ، وكنت أعيش فى أحد غرف الجناح الغربى بين المرضى . وكان زميلى ومساعدى

---

(١) يراجع عدد جريدة السياسة بتاريخ ٥ يناير سنة ١٩٢٧

الوحيد، الدكتور اسماعيل شكرى، يشغل حجرة فى بناء متطرف منعزل يطل على الجبل، وغادرت المصحة يوماً إلى القاهرة، ولما عدت فى المساء وجدت زميلى يطل من أحد نوافذ المصحة يرتقب عودتى، وقد استقبلنى وعلى وجهه أمارات الهلع والخوف الشديد. وسألته فى لهفة عما جرى فقال جاداً:

« لا ياسيدى؛ إن حياتى غالية علىّ؛ لقد وجدت عقربا فى غرفتى، فانظر ما أنت صانع بى، فلن أبيت فى هذه الغرفة التى تأوى إليها العقارب... »

وكان علىّ أن أجد حلا يرضى زميلى ويهدىء من روعه، لئلا يترك المصحة فأمسى وحيداً بغير زميل أو رفيق أو نصير فى هذا المكان الصحراوى الموحش، الذى لم يكن بعد قد أصبح عامراً زاخراً بالحياة والحركة كما هو الآن، فقد كان المارة يتحاشون الاقتراب من أبنية المصحة خشية العدوى، وكان مكان الحديقة اليابانية البديعة الحالية أرضاً جرداء لا ماء فيها ولا شجر.. والهدوء يغمر المكان حين يقبل الليل موحشا، لا تتجاوب فيه غير أصداء سعال المرضى الجاف ينبعث خلال شرفات المرضى بين آن وآخر، ليصل إلى أذنى المرهفة المنصتة، تحاول أن تحدد مبعث الصوت ومصدره، وتعلل أسبابه وتعين أصحابه...

وما غادر الدكتور برناند المصحة فى أواخر يونيه حتى تلاحقت المتاعب علىّ وتتابعت، حتى كأنها كانت معى على ميعاد...

كانت أعسر المشاكل التى تلوح فوق الأفق وتتراءى لعيوننا معضلة رهيبة، هى ماذا سيحدث للمرضى أثناء قيظ حلوان؟ وأرجف المرجفون وتحدث العارفون !! بأن المرضى سينزفون حتما.

وسئل الدكتور برناند عن رأيه، فأجاب فى تواضع العلماء، إنه لا يدرى،

ولكن الموضوع يستحق الدراسة قبل إمكان إعطاء جواب حاسم .

وكان علىّ أن أحمل عبء هذه التجربة الحاسمة فى حياة المصحة ومستقبلها ؛ وقبلتُ هذه المهمة الشاقة العسيرة دون تردد ، بل بتطلع وشوق وارتقاب . . .

ولكن الكثيرين من المرضى ؛ حين علموا بسفر الدكتور برناند ، بادروا إلى ترك المصحه خوفاً من النزيف الرئوى ، وذهبت كل جهودى فى محاولة إقناعهم بالبقاء أدراج الرياح . . . ولم يبق بالمصحة سوى من عجزوا عن تركها لأسباب قاهرة . . .

وكان عدد مرضى المصحة عند سفر الدكتور برناند ٩٤ مريضاً ومريضة ، وجدهم عند عودته ٧٧ فقط .

وفى أوائل الأيام التى توليت فيها إدارة المصحة نيابة عن الدكتور برناند كنت أسير بين المرضى مع زميلى الوحيد ، الدكتور اسماعيل شكرى ، وأنا ألمح على وجوههم وفى نظراتهم تساؤلا مبهما ، هو مزيج من عدم الثقة ومن الاحتجاج الصامت على ما كان يبدو علىّ من حداثة السن فى ذلك الحين .

وهاجمتنى جريدة الكشكول ظالمة ، ولكنى وجدت من ولاة الأمر فى وزارة الأوقاف ومن حضرة صاحب المعالى محمد نجيب الغرابلى باشا وزيرها فى ذلك الحين ، إنصافاً وتقديراً أعادا إلى من هدوء النفس ما كان يعوزنى فى تلك الأيام العصيبة من حياتى . . .

وبالرغم من هذه المتاعب ومن المشاكل الادارية التى كان علىّ أن أجد لها حلولا سريعة حاسمة لاتحتمل الإرجاء والتسويف ، قاومت اعبائى المرهقة بعناد ، واستنجدت بروح الشاعر الذى يسعفه الخيال حين يصدمه الواقع الكريه ، وكنت أنفرد فى الحديقة ليلا أقرض الشعر هوايتى المختارة ، أطرد به أشباح الوحدة ودواعى اليأس .

ولقد كان حضرة «الدكتور اسماعيل شكرى» بخلقه السلس الوديع ، ووفائه النادر وإخلاصه القلبي ، أكبر معين لى فى هذه الأيام العصيبة التى عشناها معاً نرقب ونسجل ، ونتتبع حالة المرضى ونرصد ما نشاهده فى عناية ودقة .

وإنى لأعد هـذا الصيف أحفل فترة مرت فى حياتى العملية بالتجارب ؛ وأعمقها أثراً فى تـكوينى وإعدادى من كل الوجوه ، بل أعتبرها فترة امتحان عسير كان علىّ أن اجتازه بنجاح أو أغير مجرى حياتى العملية وأوجهها وجهة أخرى ، إذا قدّر لى أن أتخاذل أو أضعف أو أتردد فى احتمال التبعة التى ألقيت على عاتقى .

ومرت التجربة بسلام ، واستطعت أن أقدم لجناب الدكتور برناند ، حين عاد فى سبتمبر سنة ١٩٢٧ ؛ تقريراً شاملا دقيقاً عن حالة المرضى فى أثناء الصيف تبين منه بجلاء أن المخاوف التى أثارها المرجفون حول أثر جو حلوان الضار فى أثناء شهور الصيف أوهام لا سند لها من الواقع .

واستطاع جنابه ، بعد أن راجع المشاهدات الاكلينيكية التى جُمعت ؛ أن يطمئن وزارة الأوقاف على مستقبل المصحة ، وأن يسجل ذلك فى تقرير رسمى رفعه إلى وزير الأوقاف .

وسنعود إلى توكيد هذه المشاهدات فيما بعد ، حين نستعرض خبرة السنوات الثلاث الأولى من حياة المصحة ؛ إذ كانت خبرة هذا الصيف بداية دراسة علمية نشرت نتائجها النهائية بعد أن أيدتهـا التجارب المتكررة والمشاهدات المتزايدة على مر السنين . . .

وقد انضم إلى أسرة المصحة المصرية ، حضرة «الدكتور محمود العشرى»(١)

---

(١) وحضرته يتولى الآن منصب مدير قسم الأمراض الصدرية بوزارة الصحة ، والمصحة وحدة من وحدات هذا القسم .

فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٧ طبيب امتياز ، بعد أن انتهى من دراسة الطب فى جامعة برلين ، فأصبحنا ثلاثة أطباء مصريين تتقارب أعمارنا ، ويجمعنا رباط وثيق من الإخاء والتعاون ، والتفرغ التام لخدمة هذه المصحة الناشئة التى مزجنا شبابنا بشبابها مغتبطين هانئين .

وفى الشتاء التالى بدأ الجهد يثمر ، وازداد إقبال المرضى على المصحة ، وبدت النتائج العلاجية مشجعة بعد أن عملت بالمصحة أول عمليات الاسترواح الصدرى التى أجريت فى مصر « Artificial Pneumothorax » ، وكان علاجا لا يزال فى ذلك الحين مستحدثاً غير شائع الاستعمال ، لا يمارسه غير أساطين المهنة فى أوروبا ، ويعد الدكتور برناند من أوائل الروّاد العالميين فى هذا الميدان .

كما انتهز الدكتور برناند زيارة الاستاذ بيرار (Prof . Berard) لمصر وهو من أشهر جراحى فرنسا ، فأجرى لمريضة بالمصحة أول عملية نتف العصب « Phrenic Evulsion » وأول عملية قص الأضلاع « Thoracoplasty » كما بدىء باستعمال جميع العلاجات الحديثة التى يعالج بها مرضى المصحات بسويسرا .

وأخيراً استقر الرأى على تحديد يوم لافتتاح المصحة رسمياً ، بعد أن انتظم العمل بها واستكملت بعض ما كان ينقصها من مهمات وأجهزة ، لتبدو جديرة بأن يزورها المليك العبقرى الذى أنشأها ورعاها ، « حضرة صاحب الجلالة المغفور له فؤاد الأول » .

ويعد يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٢٨ - يوم تشريف جلالته لها بالزيارة رسمياً - أحفل أيامها بالذكريات وأبقاها على الزمن .

٦ – افتتاح المصحة الرسمى

فى يوم الأحد ١٩ فبراير سنة ١٩٢٨، أقيم احتفال فخم فى حلوان شرفه حضرة صاحب الجلالة المغفورله الملك فؤاد الأول، ورجال الدولة والأعيان والأطباء، لافتتاح المصحة رسميا.

وإنى لأذكر بهذه المناسبة، أن جلالته تفقد المصحة بدقة، وكان بادى السرور والاغتباط بنجاح المشروع الذى فكر فيه وأمر بتنفيذه رغم معارضة الكثيرين له، وأثبت الواقع أن جلالته كان على صواب تماما.

وقد قامت الصحافة بنصيبها المشكور، وانتهزت هذه الفرصة المواتية للحديث عن حلوان، وعن انتشار السل فى مصر، وعن توجيه الرأى العام توجيها سديداً، مما أخفت أصوات المعارضين للمصحة والناقدين لها؛ فلم نسمع صدى لأصواتهم، فقد كانت الحقائق الواقعة أقوى منطقاً وأعلى صوتاً من الأقوال..

وقد ألقى حضرة صاحب المعالى محمد نجيب الغرابلى باشا وزير الأوقاف بين يدى المليك خطاباً تاريخياً، رأينا إثباته هنا لطرافة ما حواه، وها هو ذا نص الخطاب:

«مولاى صاحب الجلالة:

أرجو أن تسمح لى جلالتكم بتقديم صادق الشكر على هذا التفضل العالى بتشريف ذاتكم الكريمة حفلتنا الرسمية لافتتاح مصحة فؤاد.

وليست هذه الخطوة يا مولاى إلا حلقة مباركة من سلسلة حلقات التجديد الذى تشرفون عليه من قرب فى عهد ملككم الزاهر.

وإنى أبادر فأصرح بأن هذه المصحة التى هى الأولى من نوعها فى القطر المصرى ما هى إلا ثمرة من ثمرات نصائحكم الغالية . فقد كانت البلاد محرومة إلى سنة ١٩٢٤ من المستشفيات المعدة لعلاج التدرن الرئوى ؛ على ما بها من حاجة شديدة إلى تلك المستشفيات ، صيانة للصحة العامة من فتك هـذا الداء الوبيل ، فى حين أن جو بلادنا صالح كل الصلاحيـة لهذه المعالجة خصوصاً مدينة حلوان التى ثبت أن جوها يفضل فى ذلك جميع الأجواء .

فاقتضت مراحم جلالتـكم رأفة بشعبكم الكريم أن تنشأ مصحة كبرى لهـذا الغرض يجد فيها المصابون بالتدرن الرئوي وسائل النجاة ، ويهرعون إليها فراراً من قدر الله إلى قدر الله ، وهم بذلك لا ينقذون أنفسهم فقط ، بل ينقذون فى الوقت نفسـه أرواحا عديدة من أفراد أسرهم الذين لا مندوحة لهم عن الاختلاط بهم إذا لبثوا مهملين فى منازلهم كما أنهم يحفظون أيضا حياة عشرات الألوف من الأشخاص المعرضين لعدوى هذا المرض الفاتك .

وما تجلت هذه الرغبة الشريفة حتى بادرت وزارة الأوقاف فى مارس سنة ١٩٢٤ فاشترت «فندق الحياة» بحلوان ، وخصصته لهذا الغرض ، وأطلقت عليه اسم جلالتكم تيمنا واعترافا بفضل هذا الإلهام السامى .

والمصحة قائمة على ربوة فى الطرف الشمالى الشرقى لمدينة حلوان ، وتبلغ مساحة أرضها ٥٧٦٠٠ متر مربع ، ومبانيها تشغل مساحة قدرها ٣٩٦٠٠ متر مربع ، وهى تشتمل على جناحين كبيرين أحدهما فى الجهة البحرية والآخر فى الجهة القبلية ، مكون كل منهما من أربع طبقات عدا الملحقات ، ويفصلهما فضاء متسع فيـه متنزه صغير للمصحة ، وقد اشترتها الوزارة بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه أرضا وبناء .

ومنعا من ضياع الوقت رأت الوزارة أن تبدأ بإعداد الجناح البحرى أولا فأدخلت عليه الاصلاحات الضرورية ، وجهزته بما يحتاج إليه من الآلات والأثاث . وهذا الجناح قسمان، أحدهما وهو الشرقى للرجال والآخر للسيدات. ويوجد بالجناح المذكور ١٣٥ سريراً منها خمسة وعشرون للدرجة الأولى وأربعون للدرجة الثانية وسبعون للدرجة الثالثة .

ومرضى الدرجة الثالثة هم الذين تقوم وزارة الأوقاف على خدمتهم وتغذيتهم وعلاجهم مجانا . أما مرضى الدرجة الثانية فيدفعون أجراً بسيطا روعى فيه الرفق بحالهم والمساعدة لهم. فى حين أن مرضى الدرجة الأولى يدفعون أجراً لا يكاد يتجاوز تكاليف الغذاء والخدمة ، إذ المعلوم أن مصحة فؤاد ليست عملا تجاريا وإنما هى عمل إنسانى لا تختص به طبقة دون أخرى .

وعنيت الوزارة باختيار أحد كبار المتخصصين فى علاج التدرن الرئوى لإدارة المصحة ، ووفقت فى سبتمبر سنة ١٩٢٦ إلى التعاقد مع الأستاذ الشهير الدكتور رينيه برناند لمدة ثلاث سنوات، وهو حجة فى أمراض التدرن الرئوى، وله منزلة رفيعة وشهرة ذائعة فى عالم الطب .

ويعاون الدكتور رينيه برناند أربعة من الأطباء هم : الدكتور عبدالرءوف حسن والدكتور إسماعيل شكرى والدكتور محمود العشرى والدكتور بانشو طبيب الأشعة ، ومعهم عدد من الممرضين والممرضات اللاتى مارسن هذه المهنة زمنا طويلا ، واكتسبن بذلك خبرة عملية لا غنى عنها .

وبدأ قبول المرضى بالمصحة فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٢٦ تيمنا بعيد جلوس جلالتكم على عرشكم المفدى ، ولم نكن قد انتهينا بعد من عملية الترميم والتأثيث وقبل أن يتكامل عدد الموظفين وما يتطلبه العمل من معدات .

ولقد دعانا إلى نهج هذا السبيل الواجب الإنسانى ؛ فمرضى التدرن الرئوى عديدون فى مصر، وما نمى إليهم قيام الوزارة بهذا المشروع المفيد حتى انسلوا إليها من كل حدب ، وكان من العسير إيصاد باب المصحة فى وجوههم ، وبات لزاما علينا أن نسخر لخدمة من نستطيع قبوله منهم كل ما بأيدينا من معدات محدودة .

ولا يخامرنا أى ندم على اتباع هذه الطريقة بالرغم مما سببته من متاعب للقائمين بأمر المصحة ، لأنها مكنتنا من تقديم المعونة إلى عدد كبير من المرضى بل من إنقاذ حياة الكثيرين منهم .

وبلغ عدد الذين دخلوا المصحة من تاريخ قبول المرضى بها لغاية الآن ٤٥١ مريضا ، وهذا العدد ليس بالقليل إذا لوحظ أن أمراض الصدر تحتاج فى شفائها إلى الزمن ؛ إذ يلزم لعلاج المريض فى الأحوال التى لا تكون شديدة الخطورة مدة تتراوح بين سبعة وعشرة شهور ، وفى بعض الأحيان يمكث المريض بالمصحة من ١٢ إلى ١٨ شهراً إذا كانت الاصابة أكثر خطورة.

وقد زاد الإقبال على المصحة زيادة كبيرة حتى بلغت طلبات الدخول التى لم تمكن إجابتها لعدم وجود المكان ٢٤١ طلبا للدرجة الثالثة و ٤٠ للدرجتين الأولى والثانية .

وإنى أعتقد أن المصحة قد اكتسبت ثقة جانب كبير من الجمهور المصرى، وسيعمل المرضى الذين يعودون إلى أهليهم بعد تمام شفائهم على إنماء هذه الثقة ، فان النتائج الطبية للعلاج بالمصحة قد فاقت كل ما كنا نؤمله، وهى أوجب للرضى فى حالات التدرن فى الأدوار الأولى ، فإن ٨٣ ٪ من هذه الحالات كان العلاج فيها ناجعا . أما المرضى فى الدور الثانى فقد نجح العلاج فى ٦٠ ٪ منهم

يقابل ذلك ٢٦ ٪ فقط ممن كانوا فى الدور الأخير من أدوار المرض . وهى نتائج قابلة دائما للتحسن .

والمصحة هى فى الوقت نفسه مدرسة يتعلم فيها المرضى كيف يقومون بالاحتياطات الصحية اللازمة ، وبذلك لا يحدث منهم خطر على الآخرين ، وبنوع خاص على الأطفال . لذلك عنيت المصحة بتلقينهم التعاليم الصحية العملية وتفهيمهم أن التدرن يتبع فى سيره طريقة خاصة ، وأنه لا يمكن شفاؤه بفعل الأدوية الساحرة بعد تناول مقادير خاصة منها ؛ بل إن شفاءه يتم بالصبر وتعود النظام . والتعاليم الصحية العملية التى يتلقاها المرضى لا تقل فى الاهمية عن شفائهم بالذات ، لأنهم يلقنونها لذويهم وللجمهور الذى يختلطون به بعد شفائهم ، وبهذه الطريقة تصبح المصحة عاملا من العوامل الفعالة فى إيقاف تيار مرض التدرن الرئوى فى مصر .

ومن الحقائق التى يدركها المرضى بالمصحة أن مرض التدرن الرئوى قابل للشفاء متى عولج علاجا منظما فى أول أدواره ، وأنه ليس مرضا وراثيا حتما بل يمكن مع اتخاذ بعض احتياطات سهلة التنفيذ منع انتقاله من الآباء إلى الأبناء .

ومما تهم معرفته حالات الشفاء الخاصة التى حصلنا عليها فى المصحة ؛ فقد تم شفاء عديدين من المرضى المصابين بإصابات خفيفة أو متوسطة الخطورة فى مدة تتراوح بين السبعة والعشرة شهور بحالة تماثل فى سرعتها وتمام نجاحها ما يحدث بالضبط فى مصحات أوربا .

وفى الواقع فانه إلى جانب تأثير الجو الجميل النادر المثال ، تطبق فى المصحة أحدث طرق العلاج ، وخصوصا العلاج بالعمليات ، وأكثر المرضى بالحمى

الدرنية تنخفض درجة حرارتهم تحت تأثير الراحة وجودة الجو فى الأسابيع الأولى من العلاج .

وقد شوهد ازدياد الوزن بين المرضى مطرداً وسريعاً حيث وصلت الزيادة فى بعض الحالات إلى ١٥ بل إلى ٢٠ كيلوجرام فى مدة لاتتجاوز أربعة أشهر .

وقد أقنعتنا النتائج العامة للعلاج بأن جو حلوان لا يضارع فى شفاء التدرن الرئوى، وأن اختيار هذه البقعة لإنشاء المصحة كان اختياراً موفقاً تمام التوفيق.

وكان البعض يظن أننا سنواجه مشكلة خطيرة فى أوائل الصيف وأن المضاعفات ستصيب معظم مرضانا حتما من جراء الاحتقانات كارتفاع الحمى والنزيف الرئوى وما إليهما . ألا أنه يسرنى أن أقرر بأنه لم يتحقق لحسن الحظ شىء من هذه التنبؤات ولم تؤثر حرارة الجو الشديدة فى صيف العام الماضى على اطراد الشفاء نظراً لأن نسيم الصحراء جعل الليالى فى حلوان محتملة والجو إلى حد ما منعشاً بحيث حصلنا فى شهور الصيف على نسبة تماثل تقريباً ماحصلنا عليه من حالات التحسن أو الشفاء أثناء الشتاء .

وقد رأت الوزارة لزيادة انتفاع المرضى بمواهب جناب مدير المصحة أن لاتضن بالترخيص له بعمل عيادات خارجيـــة لمن يرغبون فى استشارته، وبلغت هذه العيادات لغاية الآن ٨٠٦

« مولاى :

لقد شجعنا نجاح الخطوة الأولى التى خطتها المصحة فى ضوء نصائحكم الغالية وبحسن تعضيد البرلمان على إتباعها بأختها . وسيهيأ الجناح القبلى قريباً لقبول المرضى ويكون مخصصاً لمرضى الدرجة الثالثة . وبذلك يكون مجموع الأسرة

بالمصحة ٣٣٥ سريراً ، وأدرجت المبالغ اللازمة لذلك فعلا فى ميزانية السنة الحالية وفى مشروع ميزانية السنة المقبلة . وبذلك يكون مجموع نفقات إعداد الجناحين ٢٧٤٧٨ جنيهاً . وليس هذا بالمبلغ الكبير فى جانب الفوائد الجمة التى تنجم عن هذا المشروع الخيرى لحفظ صحة الشعب . فالمصحات هى أمضى سلاح لمحاربة التدرن الرئوى ولذلك قامت جميع الدول الأوروبية تنفق عليها بسخاء . وقد أصدر مؤتمر الممالك ضد التدرن الرئوى المنعقد فى لوزان سنة ١٩٢٥ تقريراً جاء فيه أن الوفيات بمرض التدرن الرئوى قد نقصت بمقدار ٥٠ فى المائة فى الممالك التى يعالج فيها بواسطة المصحات التى تسير على الطرق الصحية .

ومصحة فؤاد هى بمثابة الطليعة فى المؤسسات الصحية التى يجب إنشاؤها لتقصى هذا الداء واستئصاله فى القطر المصرى .

والأمل وطيد يامولاى فى أن نتبع هذه الخطوة خطوات أخرى موفقة إن شاء الله لإعلاء شأن هذه المصحة وتوسيع دائرة أعمالها حتى يكون أثرها فى صيانة الصحة العمومية أعمق وأنفع وأعم فى ظل حكمكم الدستورى السعيد الحافل بأنواع الخيرات والذى يؤتى كل يوم أبرك الثمرات .

وفى الختام لايسعنى يامولاى إلا أن أبتهل إلى الله العلى القدير أن يثبت عرشك ويصون ملكك ويطيل عمرك وأن يلحظ بعنايته الإلهية حضرة صاحب السمو الملكى ولى عهد المملكة المصرية الأمير فاروق .

لازالت خطواتك يامولاى لمواساة الرعية مواسم ، وأيامك الغر بشمس التجديد بواسم ، (انتهى نص خطاب معالى الوزير) .

وتابعت المصحة أعمالها بعد الافتتاح الرسمي في نشاط، واطرد نموها، وزاد عدد مرضاها، وتزاحم المرضى على أبوابها يلتمسون الدخول فلا يستطاع تلبية طلباتهم لعدم وجود أمكنة كافية للعدد المتزايد من المرضى المنتظرين.

وقبيل سفر جناب الدكتور برناند بالأجازة الصيفية قام بسعي مثمر لدي أصدقائه العاملين في ميدان كفاح السل في الخارج، ونجح في أن تقبل مصر عضواً في الاتحاد الدولي لكفاح السل ومقره باريس، وهي أول مرة تشترك فيها مصر في هذا الميدان الدولي.

وبمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي السادس لكفاح السل بروما في سبتمبر سنة ١٩٢٨ اقترح جنابه تمثيل مصر فيه، فوافقت الحكومة المصرية على أن أشهد هذا المؤتمر مع جنابه مندوبين رسميين عن مصر. وسأتحدث عن ذكريات هذا المؤتمر فيما بعد.

وسافر جنابه في آخر يونيه سنة ١٩٢٨ بالإجازة على أن ألقاه في روما في سبتمبر، وترك المصحة تحت إشرافي في صيفها الثاني...

وكانت المصحة قد ألفتني وألفتها، ووثقت الأيام ما بيني وبين المرضى من أواصر المودة والتفاهم، وشعرتُ بالفارق الهائل بين موقفي من المرضى خلال الصيف الأول وبين ما غمروني به من ثقة خلال الصيف الثاني، وشهدتُ حفلة وداع جناب الدكتور برناند قبل قيامه بالإجازة، فأثر في نفسي أبلغ تأثير ما بدا من المرضى من دلائل المودة وعرفان الجميل فأقبلت على عملي بالمصحة خلال هذا الصيف منذ اللحظة الأولى عامر القلب بالإيمان بفضل الله، مطمئن النفس هادئ البال، بالغ الحماسة، موفور النشاط، يعاونني زميلاي حضرة الدكتور

إسماعيل شكرى وحضرة الدكتور محمود العشرى ، معاونة قلبية سداها المودة ولحمتها الاخلاص .

واستطاعت المصحة لأول مرة أن تتابع نشاطها فى أثناء الصيف كاملا ولم ينقص عدد مرضاها بل زاد فعلا ، وهى ظاهرة تستوقف النظر وتستحق التسجيل . وفى الرسم البيانى التالى مايوضح هذه الملاحظة أبلغ توضيح خلال سنوات المصحة الثلاث الأولى :

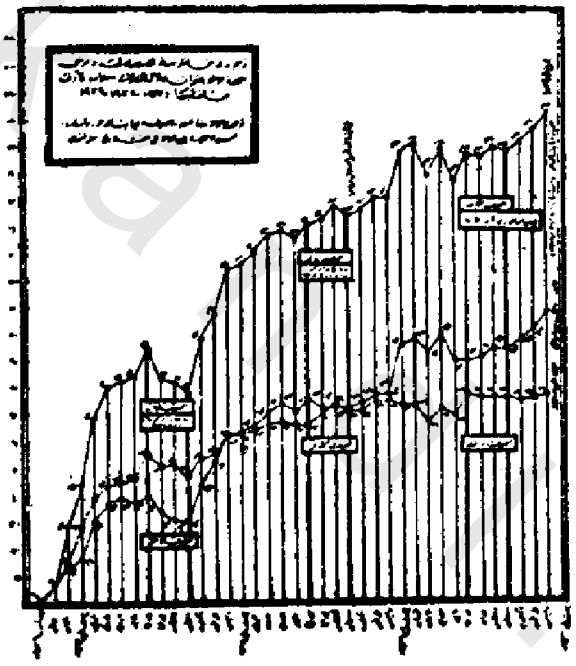

رسم بيانى عن عدد أسرة المصحة خلال السنوات الثلاث الأولى

وفى أواخر سبتمبر سنة ١٩٢٨ تركت المصحة وديعة بين يدى زميلى الدكتور اسماعيل شكرى والدكتور محمود العشرى ، وسافرت إلى روما لشهود المؤتمر الدولى السادس لكفاح السل على أن يعود جناب الدكتور برناند بعد انتهاء المؤتمر مباشرة فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر التالى .

٧ — أول مؤتمر دولى لكفاح السل تمثل فيه مصر

أن انضمام مصر إلى عضوية الاتحاد الدولى لكفاح السل ، ومقره المركزى باريس ، يعد بحق جهداً من جهود مصحة فؤاد الأول بحلوان ، وفضلا يسجل بالحمد لمديرها الأول جناب الدكتور برناند ، إذ لولا وجود المصحة ، ولولا مابذله مديرها من مسعى شخصى لدى المشرفين على هذا الاتحاد لما استطاعت مصر أن تنتظم فى زمرة الأمم التى تعنى بكفاح السل ، وتعقد المؤتمرات لتبادل الآراء ، ونشر الأبحاث حول هذا المرض الخطير الذى خطت مصر أول خطوة عملية فى سبيل كفاحه بإنشاء مصحة فؤاد الأول بحلوان .

وقد عقد المؤتمر بروما من ٢٥ إلى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٨ ورأينا أن نسجل فى أحد ملحقات هذه الرسالة التقرير الذى رفعناه إلى معالى وزير الأوقاف بهذه المناسبة ، والملحق الأول لهذا التقرير وهو الرسالة التى قدمناها للمؤتمر . وهما أول محاولة جدية لمعالجة موضوع كفاح السل فى مصر ، وقد أثبتناهما لما فيهما من معلومات تبدو طرافتها أشد وضوحا بعد أن مرت عليها كل هذه السنوات .

وهناك ملحق ثان ضاق نطاق هذه الرسالة الوجيزة عن نشره عن « أسس كفاح السل فى مصر »(١) سنشير إليه فيما بعد .

ولقد كان شهود هذا المؤتمر الدولى حادثاً هاماً فى حياتى العملية ، وجميلا اعترف به لوزارة الأوقاف ، إذ مكنتنى فى صدر شبابى من أن أتعرف إلى النخبة الممتازة من أساطين المهنة ، وأن أتصل بكثير منهم اتصالا شخصياً

---

(١) نشر هذا التقرير فى المجلة الطبية المصرية عدد نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

مباشراً . وأضافت وزارة الأوقاف إلى فضلها السابق منة أخرى ، إذ منحتنى إجازة دراسية أقضيها فى أوروبا لألتمس من معارف الغرب مايزيد معارفى ويضيف إلى تجاربى ويكمل إعدادى ، لأستطيع أن أتابع عملى بالمصحة أوسع أفقاً وأوثق تجربة .

وقد انتهزت هذه الفرصة فقمت بدراسة عملية لمشروعات كفاح السل فى فرنسا، وزرت عدداً كبيراً من معاهد العلاج بها، وتابعت دراسة جامعية عن السل فى استراسبورج . ولما عدت إلى مصر استخلصت من دراساتى رسالة عن عن « أسس كفاح السل فى مصر » ألحقتها بالتقريرات التى رفعناها إلى الحكومة المصرية عن مؤتمر روما . وقد كان هذا التقرير فاتحة دراسات أخرى حول هذا الموضوع نشرت فيما بعد . . .

وفى أكتوبر سنة ١٩٢٨ انضم إلى أطباء المصحة زميلان هما حضرة الدكتور محمود شريف (وكيل المصحة الحالى) بعد تخرجه من جامعة استراسبورج (فرنسا) وحضرة الدكتور عبد العزيز الشال (الطبيب بالمصحة الآن) بعد تخرجه من جامعة انسبروك (النمسا) ، وبهما أصبح مساعدو الدكتور برناند خمسة أطباء مصريين، وطبيب أشعة هو الدكتور بانشو (سويسرى) وبدأ العمل الفنى بالمصحة يؤتى ثماره ، وبدت المصحة معهداً جديراً بالآمال التى عقدت عليه عند إنشائه . ووجد الأطباء المصريون فى المصحة مدرسة عملية وميداناً فسيحاً لجهد مثمر يبذلونه فى سبيل بلادهم ، يقودهم أستاذ قدير موفور النشاط غزير الانتاج ، يعد بحق أروع مثال لما يجب أن يكون عليه مدير مصحة نموذجية علماً وخلقاً وإخلاصاً .

وفى هذه الفترة الغزيرة الإنتاج اكتملت عناصر أهم الابحاث التى صدرت عن المصحة فيما بعد .

وفى يوم ١٩/١٢/١٩٢٨ زار المصحة أعضاء المؤتمر الطبى الدولى الذى عقد بالقاهرة فى ذلك الحين ، وأقامت وزارة الأوقاف لهم حفلا تاريخيا جمع كثيراً من أساطين الطب فى الخارج، أذكر منهم السير روبرت فيليب أستاذ السل بجامعة أدنبره والرائد الأول فى إنشاء المستوصفات فى العالم ، والأستاذ بيزانسون أستاذ السل بجامعة باريس ، والأستاذ جونان عميد جامعة لوزان، وغيرهم من أصحاب الأسماء اللامعة فى أوربا. وقد كانت هذه المناسبة فرصة لإعلان هؤلاء الأعلام تقديرهم وإعجابهم بعمل المصحة الفنى ، ومدى النجاح الذى صادفه علاج السل فى حلوان ، بعد أن شهدوا بأعينهم آثاره ونتائجه الملموسة .

وقد تابع الدكتور برناند عمله بالمصحة إلى منتصف يونيه سنة ١٩٢٩ حين أزمع الرحيل نهائياً لظروف خاصة لم يستطع معها أن يطيل غيابه عن سويسرا. ولا أزال أذكر الوداع المؤثر التى ودعه به مرضى المصحة وأطباؤها جميعاً ، فقد عرفنا الرجل وزاملناه فأكبرناه وأحببناه . . .

والآن وقد مضت كل هذه السنوات أشعر بأن من أحب الواجبات إلى نفسى أن أسجل له هنا عرفاناً بالجميل ، هو صدى لما يجول فى نفوس جميع من أسعدهم الحظ بالاتصال به فى أثناء مقامه بمصر ، وفى خطاب التقديم المنشور فى صدر هذه الرسالة ما يكشف عن عمق الشعور الكريم الذى يحمله لمصر والمصريين .

وقد ترك جناب الدكتور برناند المصحة وبها ١٦٥ مريضاً ومريضة فى آخر يونيه سنة ١٩٢٩ كانوا يشغلون القسم الغربى من المصحة ، أما القسم الشرقى منها فقد ظل خاليا .

واستطعنا أن نتابع العمل فى أثناء الصيف وخلال الشتاء التالى ارتقاباً

لتعيين مدير سويسرى جديد ، رأت وزارة الأوقاف أن يتولى إدارة المصحة بعد مديرها السويسرى الأول . . .

وفى آخر ديسمبر سنة ١٩٢٩ جاء المدير السويسرى الثانى وبالمصحة ١٨٥ مريضاً ومريضة . . .

ولنا هنا وقفة قصيرة نستعرض فيها بإيجاز جهود المصحة فى سنواتها الثلاث الأولى ، إذ هى فى رأينا فترة التأسيس والتدعيم التى استطاعت خلالها أن تكتسب ثقة الجمهور وتقدير ولاة الأمر وأن تستمتع بشهرة فى مصر وفى الخارج هى رأس مال أمثالها من المعاهد .

٨ — استعراض وجيز لجهود المصحة فى سنواتها الثلاث الأولى

ظلت مصحة فؤاد الأول بحلوان خلال هذه السنوات الثلاث الأولى من حياتها معهداً فريد النوع ، يعالج مشكلة كفاح السل فى مصر لأول مرة علاجاً عملياً ، تبدو آثاره ونتائجه واضحة ملموسة لا سبيل إلى المكابرة فى أهميتها .

ويمكن تلخيص جهودها فيما يلى :

(أولا) الميدان الصحى الاجتماعى :

قدمت المصحة الدليل الحاسم على انتشار السل فى مصر ، واستطعنا أن نستخرج من سجلات المصحة بياناً عن مصدر الحالات التى عولجت بالمصحة تبين منه أن مصادر العدوى موجودة فى جميع أنحاء البلاد مدنها وريفها على السواء ، حتى الواحات جاءنا منها مرضى مصابون بالسل .

والرسم التوضيحى التالى يبرز هذه الحقيقة ويجلوها تماما : (١)

---

(١) عن رسالة « مشكلة السل فى مصر وارتباطها بالاصلاح الصحى العام » للمؤلف .

ونوقش موضوع انتشار السل فى مصر لأول مرة فى مؤتمر دولى ورفع لأول مرة أيضاً تقرير عن أسس كفاح السل فى مصر كان مقدمة لما تلاه من تقارير ومشروعات إصلاحيه كثيرة أخذت الحكومات المتعاقبة تعمل جاهدة على وضعها موضع التنفيذ .

واستطعنا خلال هذه السنوات أن نثير اهتمام الرأى العام بموضوع انتشار السل فى مصر بمحاضرات عامة متعددة ، ألقيت فى قاعة يورت بالجامعة الأمريكية وفى مناسبات أخرى .

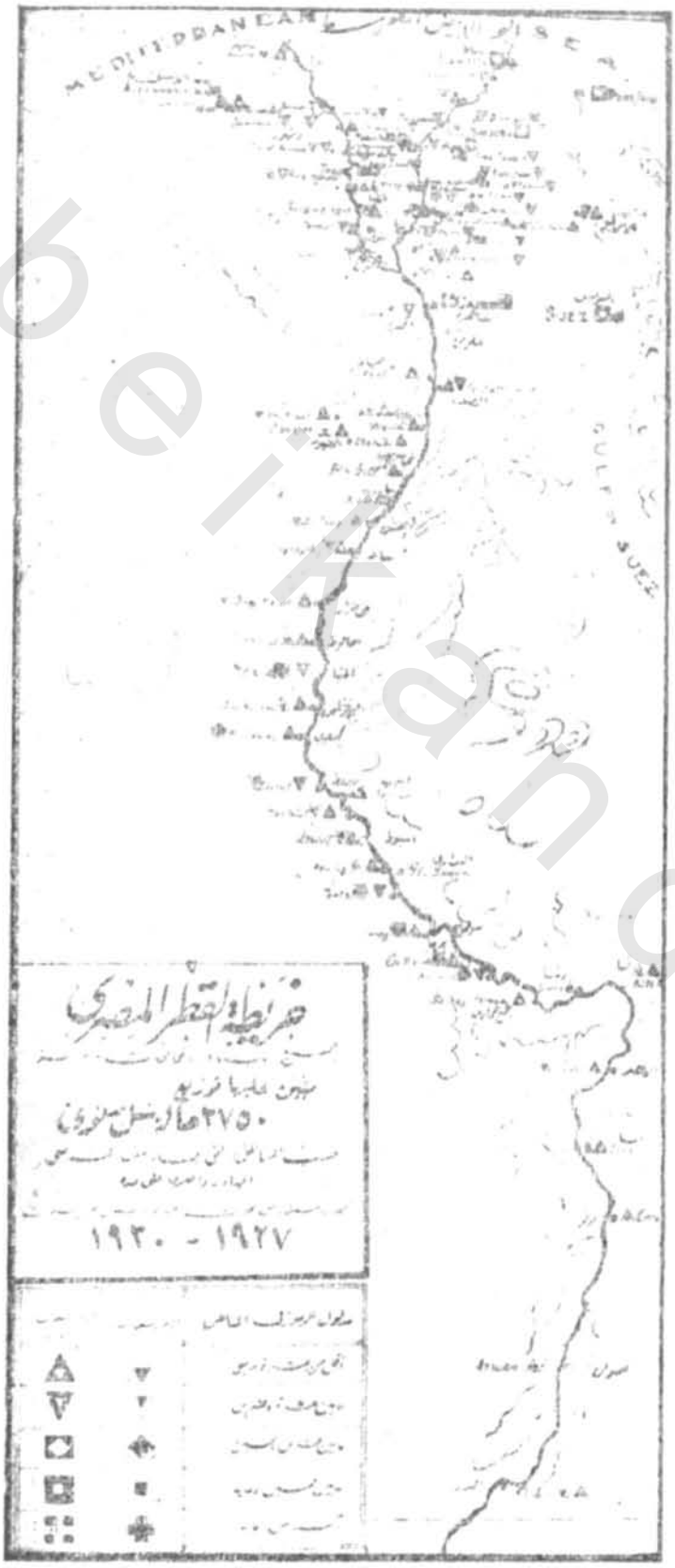

الشكل رقم « ٢ » يلاحظ أن مصادر العدوى بالسل ثابت وجودها فى كل مراكز القطر المصرى فى الريف والبنادر على السواء وفى الواحات أيضاً

ولعل أبلغ الدلائل على ما كان لانشاء مصحة فؤاد من أثر بعيد فى اقناع ولاة الأمر بمصلحة الصحة بأهمية كفاح السل فى مصر ، أن بدأت مصلحة الصحة تنشىء المستوصفات المتممة لأعمال المصحة ، فبدأت فى سنة ١٩٢٩ بانشاء مستوصفين أحدهما بالقاهرة (بولاق) والآخر بالمنصورة ، وأنشىء فى سنة ١٩٣٠ مستوصف ثالث بالقاهرة (المبتديان) ، وفى نفس العام وافق حضرة صاحب السعادة المرحوم محمد شاهين باشا على إيفاد أحد رجال مصلحة الصحة فى بعثة إلى انجلترا لدراسة السل، بعد أن كان سعادته فى أول العهد بانشاء مصحة فؤاد الأول لا يؤمن برسالتها .

ولقد وقع الاختيار على حضرة الدكتور محمود سليمان أباظه بك المفتش بقسم الأمراض المتوطنة فى ذلك الحين ليكون أول مبعوث من أطباء مصلحة الصحة إلى انجلترا لدراسة السل ، فسافر فى ١٣ ابريل سنة ١٩٣٠ وعاد فى ٢٩ يوليه سنة ١٩٣١ ليبدأ جهوده الموفقة فى الميدان الصحى الاجتماعى لكفاح السل فى مصر رائداً ممتازاً ، يمتد نشاطه إلى آفاق أبعد من أهداف المصحة المحصورة فى النواحى العلاجية ، فكان أول مدير لقسم الأمراض الصدرية بوزارة الصحة عند إنشائه فى سنة ١٩٣٦ .

وليست الناحية الصحية الاجتماعية من صميم واجبات المصحة ولا من أهدافها ، ولكنها اقتحمت هذا الميدان متطوعة ، حتى تولاه حضرة صاحب العزة الدكتور محمود سليمان أباظه بك ، وبذل فيه من الجهود المثمرة ما يبدو أثره اليوم للعيان من معاهد للوقاية والعلاج تتزايد باطراد وتنتشر فى أنحاء البلاد وتقدم الاسعاف والمعونة لألوف المصدورين فى مصر .

(ثانيا) الميدان العلمى : امتازت هذه السنوات بإنتاج علمى مثمر ، إذ جمعت المصحة مشاهدات إكلينيكية كثيرة كانت مادة خصبة للرسائل العلمية

التي صدرت عن المصحة خلال هذه السنوات وما بعدها .

وأهم ما استخلصته المصحة من تجاربها حقيقتان بارزتان تستحقان التسجيل هنا :

أولاهما ـ أن العلاج المصحى فى حلوان يوازى فى نتائجه أحسن مايمكن الحصول عليه فى المصحات السويسرية ، وذلك بناء على خبرة إخصائى قضى خمسة عشر عاماً يدير مصحة سويسرية بليزان قبل ان يجىء إلى حلوان .

ثانيهما ـ تبين من دراسة أثر حرارة الصيف على صحة مرضى الصدر أنها لاتعوق العلاج ولا تؤخره ، وأن المخاوف من النزيف الرئوى كانت وهمية لاترتكز على أساس علمى . والرسم البيانى التالى يوضح هذه الحقيقة بأجلى بيان (١)

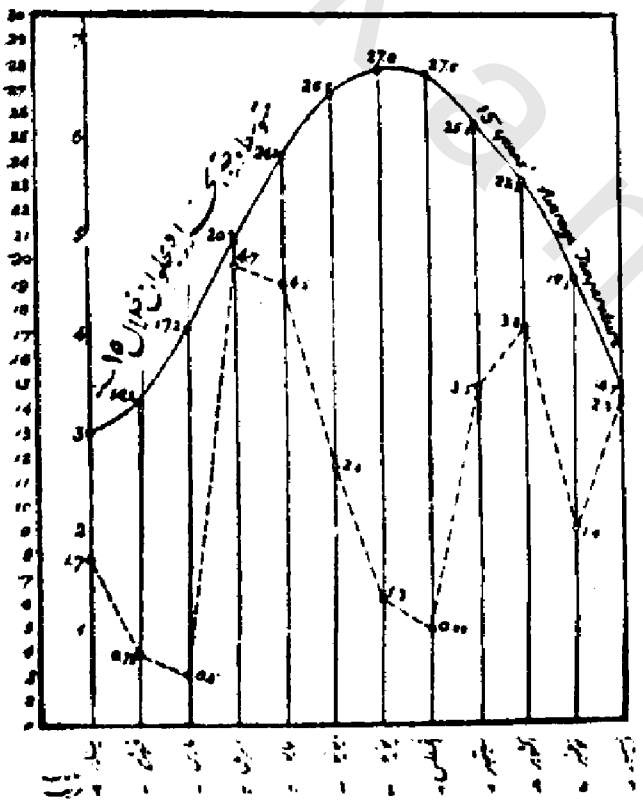

شكل بيانى يبين نسبة وجود المرارة فى صفوف المصابة

ورسم بيانى يوضح نسبة حدوث النزيف الرئوى بين ٤٠٧ حالة عولجت بحلوان

(ثالثا) المصحة كمعهد تعليمى :

كانت المصحة فى هذه الفترة من حياتها معهداً تعليمياً لأطبائها المصريين الخمسة ، تولى الدكتور برناند تكوينهم من كل الوجوه ، بحيث تعد مصحة فؤاد مدرسة عملية لهم زاخرة بالمشاهدات والتجارب مما لاغنى عنه لاكتساب الخبرة والمرانة .

وإنى لأعتبر تكوين هذه الأسرة الطبية الصغيرة تحت رعاية عالم نابه كالدكتور برناند من أجل الخدمات التى أداها هذا الرجل المخلص لمصر والمصريين . . .

(١) نقلا عن رسالة « أثر الجو فى حدوث النزيف الرئوى بحلوان » للمؤلف بالانجليزية (مؤتمر القاهرة الدولى سنة ١٩٢٨)

٩ — تعريف بجناب الدكتور رينيه برناند

أول مدير سويسرى لمصحة فؤاد الأول

قبل أن يتقلد هذا المنصب(١)

وُلد الدكتور رينيه برناند فى فرساى (فرنسا) فى ٩ يونيه سنة ١٨٨٢ - أى أنه كان فى بدء عامه الخامس والأربعين حين تولى إدارة مصحه فؤاد .

وقد أمضى دراسته الثانوية فى مونپلييه .

فى سنة ١٩٠٥ حصل على دكتوراه الطب من جامعة مونپلييه .

« « ١٩٠٦ « « دبلوم الطب السويسرية من چنيف .

« « ١٩٠٨ طبيب امتياز بمستشفيات چنيف .

« « ١٩٠٨ — ١٩١١ وكيلا لمصحات بليزان *(Leysin)*

« « ١٩١١ — ١٩٢٦ مديراً للمصحة الشعبية بليزان .

« « ١٩٢٦ مديراً لمصحة فؤاد بحلوان .

مؤلفاته الأدبية : ثلاثة مؤلفات ، أحدها ترجمة لحياة والده المصور السويسرى الشهير « يوچين برناند » .

مؤلفاته العلمية : كتابان علميان عن السل .

رسائله العلمية : بلغت ٩٦ رسالة فى مختلف الأبحاث الطبية حول السل .

---

(١) عن نشرة مطبوعة .

رسائل دكتوراه قدمها تلاميذه : ست رسائل كلها تتناول موضوع السل .

والدكتور برناند يتميّز بأسلوب واضح سلس فى كل مايكتب ، وهو يجمع بين اقتدار الأديب الفنان وتبحر العالم المتمكن فى اختصاصه ، الذى اشتهر به فى أوروبا شهرة واسعة بين جميع المشتغلين بموضوع السل .

١٠ — المدير السويسرى الثانى

دكتور إريك زيمرلى

كان بودى أن أسجل فى هذه الرسالة ظروف اختيار جنابه مديراً للمصحة ، كما فعلت عند ما تحدثت عن الدكتور برناند ، وأن أورد لمحة عن حياته ؛ ولكن سجلات المصحة خالية تماماً من أية وثائق أو تقارير يمكن الاسترشاد بها لسد هذا الفراغ ؛ وقد اعتذر جنابه عن المساهمة فى هذه الرسالة التذكارية لاستكمال هذا النقص .

وكل ما أستطيع ذكره عن جنابه ، اعتماداً على الذاكرة فقط ، أنه كان حين تولى إدارة المصحة شاباً يجاوز الثلاثين من عمره بسنوات قلائل ، وقد حصل على دكتوراه الطب من جامعة بال (Basel- Suisse) ودبلوم الاتحاد السويسرى ، ثم سافر الى انجلترا فحصل على إجازة الطب الانجليزية ، ومارس مهنته فى مصحات سويسرا إلى إن وصل إلى منصب وكيل أحد مصحات أروزا (Arosa) حين اختارته وزارة الأوقاف فى يناير سنة ١٩٣٠ ليَلى منصب مدير مصحة فؤاد بحلوان . وقد بذل جنابه أقصى ما استطاع فى إدارة المصحة ثلاث سنوات ، تخلى بعدها عن العمل باختياره فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

١١ — استعراض وجيز لحالة المصحة

أثناء الثلاث السنوات الثانية

لم يُقدّم جناب الدكتور زيمرلى أثناء توليه إدارة المصحة أية تقارير سنوية عن المصحة لوزارة الأوقاف يمكن الرجوع إليها فى الوقت الحاضر .

ولكن الرسم البيانى التالى يوضح نمو المصحة فى هذه الفترة من حياتها ، وقد أشير إلى الفترة التى نتحدث عنها بخط أفقى مزدوج .

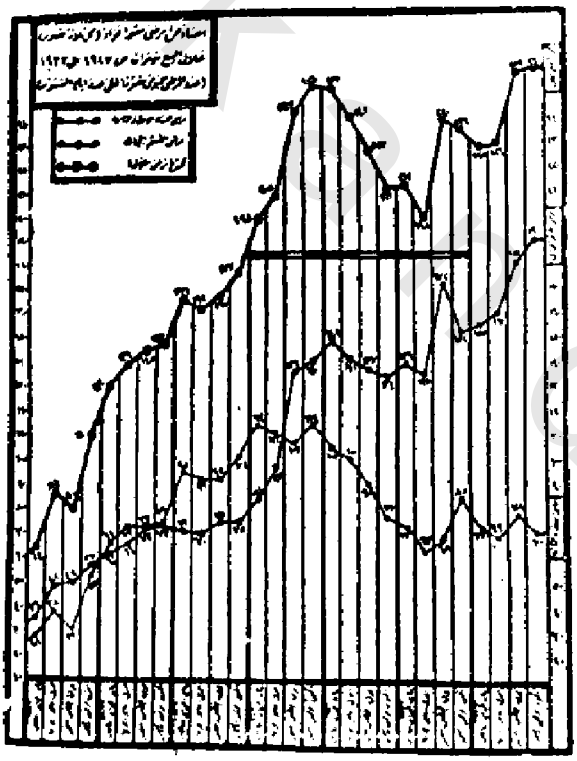

الشكل رقم (٤) يبين نمو المصحة التدريجى خلال ست سنوات من الادارة السويسرية والسنة الأولى من الادارة المصرية ، وقد أشير إلى السنوات الثلاث الثانية بخط أفقى مزدوج

ويلاحظ أن المصحة تابعت نموها خلال السنة الأولى فبلغ متوسط عدد مرضاها فى أول عام ١٩٣٠ : ١٩٨ مريضاً ومريضة ، زاد فى نهاية العام الأول الى ٢٥٤ مريضاً ومريضة .

ثم هبط هذا المتوسط فى السنة الثانية كلها وشتاء السنة الثالثة ، حتى عاد إلى المتوسط الذى بدأت المصحة به فى أولى هذه السنوات فى آخر يونية

سنة ١٩٣٢ حين سافر جناب الدكتور (زيمرلى) بآخر إجازة صيفية قضاها فى الخارج . . .

ونمو المصحة فى العام الأول يرجع إلى تأثيث الدور الأسفل من الجناح الشرقى الذى كان خالياً من المرضى فى عهد جناب الدكتور برناند .

أما هذا النقص الواضح فى عدد مرضى المصحة الذى تلا ذلك فيرجع جانب منه إلى قلة إقبال المرضى الأغنياء على العلاج بالمصحة ، بسبب الضائقة المالية التى كانت قائمة فى ذلك الحين . . .

وفى أول هذا العهد التحق بالمصحة طبيبان ، أحدهما حضرة الدكتور محمد كمال (توفى فى سنة ١٩٣٣) وحضرة الدكتور عرفان عبد الحميد الانصارى (ترك المصحة مستقيلا فى سنة ١٩٣٣) . . .

وفى صيف سنة ١٩٣٠ سافر جناب الدكتور زيمرلى وحضرة الدكتور اسماعيل شكرى الطبيب بالمصحة ، لتمثيل مصر فى مؤتمر الاتحاد الدولى لمكافحة السل الذى عقد بأوسلو فى منتصف أغسطس سنة ١٩٣٠ .

وبعد عودتهما قدما تقريرا عن أعمال المؤتمر فى نوفمبر سنة ١٩٣٠ الى وزارة الاوقاف ، عرضا فيه الموضوعات التى ناقشها المؤتمر وهى (١) فاكسين كالميت (٢) عملية قص الاضلاع (٣) دراسة السل قبل وبعد الحصول على دبلوم الطب .

ومما أذكره لجناب الدكتور زيمرلى بالخير ، أنه أشار على وزارة الأوقاف بأن تتيح لأطباء المصحة فرصة السفر الى الخارج فى بعثات عملية لدراسة اختصاصهم فى المعاهد الشهيرة بأوروبا ، فوافقت الوزارة على إيفاد حضرة الدكتور اسماعيل شكرى فى بعثة عملية قضاها حضرته فى باريس بين إبريل سنة ١٩٣٠ وسبتمبر التالى .

وأوفد حضرة الدكتور محمود العشرى إلى ألمانيا فى أول مايو سنة ١٩٣١ فالتحق بجامعه هيدلبرج ، عند البروفسور فرنكل (Prof. Fraenkel) ومرن عمليا على أعمال المصحات فى (روروباخ) ومصحات الغابة السوداء ، وعاد فى آخر سبتمبر التالى.

وخلال هذه السنوات الثلاث صدرت عن المصحة أبحاث علمية متعددة سيجىء ذكرها فيما بعد . وأرى لزاما علىّ ، وقد مرت هذه الفترة الطويلة منذ ترك جناب الدكتور زيمرلى إدارة المصحة ، أن أسجل له شكر مصر على ما قدم من جهد فى سبيل المصحة ، وأن أثنى أطيب الثناء على ما امتاز به من خُلُق رضىّ دمث وطبع هادىء .

صورة تذكارية لأطباء المصحة فى سنة ١٩٣١ — دكتور زيمرلى فى الوسط ، الى اليمين دكتور العشرى والى اليسار دكتور عبد الرءوف

الواقفون من اليمين : دكتور فؤاد عباس ، دكتور كمال ، عبد العظيم افندى الصيدلى دكتور شكرى ، دكتور شريف ، دكتور الانصارى